الخطيئة والعقاب في الفكر الرافدي القديم

د. نجاح بلقاسم زايد
كلية الآداب - جامعة الزاوية

مقدِّمة:

عادة ما تنحصر العلاقات بين الآلهة والبشر، في الفكر العراقي القديم، في ثنائيات (الطاعة/ الثواب)، (الخطيئة/ العقاب) وهو ما يعني الفعل ورد الفعل في سياق تلك العلاقات، فالآلهة تكافئ من يطيع أوامرها، وتعاقب من يخالفها، من هنا كان على الرافدي القديم أنْ يحافظ على علاقته بالآلهة، بإتباع أوامرها، واجتناب ما يثير عقابها.

يطرح هذا الموضوع في هذه الورقة البحثية لأهميته، ولأنَّه من المرتكزات الأساسية للفكر الديني في العراق القديم، وإذا كان الرافدي القديم يفسِّر كل ما يصيبه من أمراض وابتلاءات بإرجاعها إلى غضب الآلهة. فما هو المعنى الفلسفي للخطيئة والعقاب؟ وهل ينحصر مفهوم الخطيئة في انتهاك النواميس الإلهية، فيكون العقاب بالتالي محدداً بتحديد نـــوع الإثم أو الخطيئة؟ وفي المقابل هل يتخطَّى العقاب الإلهي مبدأ العدالة؛ ليصبح مجرَّد إجراء عنيف وظالم؟ أو بعبارة أدق هل هناك توافق بين الخطيئة والعقاب؟

أولاً: مفهوم الخطيئة وأنواعها:

اعتقد العراقيون القدامى أنَّ استمرار الكون والعيش بسلام وهدوء، يشترط رضا الآلهة، وإذا ما غضبت هذه الأخيرة فالانتقام سيحل لا محالة[1]حيث كانت العلاقة السائدة بين الآلهة والبشر عن طريق القرابين، وبناء المعابد للآلهة، وتطورت فيما بعد، فاندفع الإنسان للمحافظة على نقاء قلبه مرضاة للآلهة، ولأنَّ الأخيرة تريد ذلك حتى تكافئ من اتبع فرائضها، وتعاقب من خالفها، فأصبح الإله قاضياً وراعياً لهم، يقوم على إقامة العدل الإلهي بينهم، بينما استقر في قلوب البشر الرهبة والخوف من انتقام الآلهة،

وتتجسَّد هذه العلاقة في كثير من النصوص، نذكر منها على سبيل المثال النص التالي:

"اعبد إلهك كل يوم
وقدِّم له القرابين والصلوات
التي تتم على أكمل وجه مع تقديم البخور
قدِّم قربانك طائعاً لإلهك
لأنَّ ذلك يتناسب مع الآلهة
قدِّم له الصلاة والضراعة والسجود كل يوم
وسوف تتاب على ما تفعل
عندئذ سيكون بينك وبين الآلهة اتصال كامل.
إنَّ التبجيل يولد الخطوة
والقربان يطيل العمر
والصلاة تكفِّر الذنب"[2].

تعرف الخطيئة بأنَّها اختراق، أو خرق أو انتهاك للقانون الإلهي أو المقدَّس، وما يهمنا في الخطيئة هو إرادة الخاطئ، وقصده وسبب الخطيئة، فالآكديون والبابليون كانوا يرون أنَّ ما يهم في الخطيئة "ليست إرادة فعل الشر، ولا فعل الشرير، ولكن النتائج الشريرة أو الأليمة لذلك العمل الشرير، ومن هنا اعتبرت الخطيئة نوعاً من أنواع الفساد والأذى، وأنَّها تعيش في العمل الشرير الذي سببها، لهذا لم يكن سهلاً فصلها عن أسباب الشر[3].

تسمى الخطيئة بالسومرية (نك.كك Nig.gig) وبالأكدية (اكبو Ikki-bu) أي كبوة، وكذلك (أنزالو Anzallu) أي النازلة كما يستعمل المصطلح السومري كلمة (SE.BA.DA) والتي ترادفها بالأكدية (خطو K.hitu) و(خطيتو Khit-tu) وهي الخطيئة[4].

وبحسب المعتقدات الرافدية القديمة، فالخطيئة قديمة وجدت مع وجود الإنسان، وأنَّه معرَّض دائماً لارتكابها كما ورد في أحد النصوص السومرية.

"لقد قال الحكماء كلمة صادقة ومعبِّرة:
لم يولد لأم ولد بلا خطيئة
ومن القدم لم يكن فتى بلا خطيئة"[5].

يفهم من هذا النص أنَّ الإنسان ولد وولدت معه الخطيئة، فهي ملازمة له منذ أنْ خلقته الآلهة، سواء كانت هذه الخطيئة متمثلة في عصيان أوامر الآلهة أو مخالفة التعاليم الطقسية، وعلى الرغم من أنَّ معصية الوصايا والتعاليم تعد من أكبر الخطايا[6] إلا أنَّ انتهاك المحرم (التابو)

بقصد كان أم بغير قصد هو أيضاً من الخطايا الكبيرة. و(التابو) في حضارة بلاد الرافدين هو منع غير مبيَّنة دوافعه، وهو لا صلة له بالجانب الأخلاقي مهما كان دافعه إلزامياً، ومن خصائص التابو أنَّه ديني في جوهره، ويقدَّم للناس ككابح وضابط، لأنَّ النصوص الدينية جميعها هي صلوات وتضرُّعات تعبِّر عن الحاجة البدائية لتجنُّب الخطيئة، وهنا تدخل فكرة المحرَّم أو الممنوع، حيث يأتي التحريم كأمر صارم سلبي، يتضمَّن دائماً منعاً لتعليمات أو أوامر، وأنَّ هذا المنع يفترض مفهوماً مسبقاً، أو اعتقاداً مسبقاً بما هو مقدَّس، أو بخس ينزل بمن ينتهكه الموت أو المرض أو غير ذلك، وتظهر قوة التحريم في المقام الأول من خلال وجوب تجنُّب انتهاكها، إنَّه الشعور بالمنع الذي يُعرِّفه التحريم[7].

وتحفل النصوص السورية والبابلية بالكثير من التوصيات بعدم انتهاك التابو أو المحرَّمات، ولعل انتهاك المحرَّمات خلال (يوم السبت البابلي) هي التي أوجبت تدوين الأوامر التي يجب احترامها خلاله في هذا النص.

"لا يأكل اللحم المطبوخ على الفحم والمدخن
لا يغيِّر ثوبه ويلبس ثياباً نظيفة
لا يشرب خمراً ولا يركب الملك في عربته
لا يتكلم بزهو وخيلاء
ولا يضع الطبيب يده على المريض
لا يلعن ...
في الليل يقدِّم الملك قرابينه إلى الآلهة العظام"[8].

يمتاز التابو بصرامته وسلبيته، وبأنَّه لا يتضمَّن تعليمات وأوامر، بل منعاً صارماً وعقاباً مباشراً، أي أنَّه يتكوَّن من ثلاثة عناصر: هي معرفة الطابع المقدَّس أو النجس للشخص أو الشيء، والمنع الذي يترتَّب على ذلك، ثم العقاب الذي يكون صارماً ومباشراً[9].

يقودنا هذا للحديث عن أنواع الخطايا، إذ يمكن تصنيف الخطيئة إلى أنواع عدَّة على النحو التالي:

1- الخطيئة المنسوبة إلى البشر قسراً. حيث تكون الآلهة -حسب تصور سكان بلاد الرافدين- كالبشر، تحمل صفات البشر الروحية والمادية، ومن

هذه الصفات الغضب لأسباب مختلفة[10] ولهذا فغضبها ينعكس على البشر بشكل خطايا وذنوب، وبهذا المعنى يعد الإنسان غير مسئول عن الخطايا والذنوب التي يرتكبها، لأنَّ ما ارتكبه كان بفعل الإرادة الإلهية، وأنَّ مسئوليتها تقع على عاتق الآلهة، وعليه فأنَّ الآلهة التي سبَّبت مثل هذه الخطايا، سوف تحاسب أمام مجلس الآلهة[11].

2- الخطيئة المنسوبة إلى الإنسان نفسه، ويأتي ذلك من طبيعة السلوك الإنساني، وتوجهاته بين ما يريد فعله، وما يجب أنْ يمتنع عنه، ويتضح هذا النوع من الخطايا في نصائح من حكيم إلى تلميذه ضمن نص بابلي يقول:

"لا تنتهر قليل العقل، بل اشفق عليه
لا تزدرِ الذين هم عرضة لتجربة
لا تتوجَّه إليهم بغطرسة
لأنَّه من أجل ذلك يهجرك إلهك الشخصي الذي يحميك.
وهذا أيضاً مكروه لدى شمش ويعاقب عليه"[12].

3- الخطيئة المنسوبة لطبيعة الخلق الإنساني، فالاعتقاد الذي كان سائداً لدى سكان بلاد الرافدين، أنَّ الإنسان خلق عن دم الإله الخاطئ:

"كينغو* وحده
هو الذي حرض على القتال
ودفع تيامت إلى الثورة
ونظم المعركة
عند ذلك عمد على تقييده
وأتى به أمام أيا
ومن ثم ولكي يتلقى عقابه
تمت إسالة دمه
وبدمه أنتج أيا البشر"[13].

4- الخطيئة الجماعية والمنسوبة للفعل الجماعي، كالشرك وانتهاك المقدَّسات الإلهية، وقد حفل أدب المراثي السومري والبابلي بالكثير من شواهد تدمير المدن مثل: أورو وأكاد وغيرهما، فعندما ترتكب الخطيئة من قبل مدينة بأكملها، فالآلهة ستتخلَّى عن المدينة، وتسلَّط عليها الكوارث والويلات[14].

تعد الخطايا الجماعية من أكثر الأسباب التي تثير غضب الآلهة، فالآلهة تمقت:

"الناس الذين وهم يمشون في الإثم تتطاول أيديهم
والذين يخالفون مبادئ السلوك الثابتة وينتهكون حرمة العقود
والذين كانوا ينظرون بعين الرضا إلى أماكن الشر
والذين كانوا يستبدلون معياراً صغيراً بمعيار كبير
والذين بعد أنْ يأكلوا ما ليس لهم لا يقولون إنَّنا أكلنا
والذين من بعد أنْ يشربوا من ماء غيرهم لا يقولون إنَّنا شربناه، والذين يقولون سنأكل ما هو محرَّم.
والذين كانوا يقولون سنشرب ما هو محرَّم"[15].

5- الخطيئة الموروثة: هي التي يرثها الأبناء من الآباء، فتتحمَّل عائلة الميت وزر وخطايا الميت، وهو ما ورد نصه في إحدى التعاويذ التي تقول:

"عقوبة أبي وجدي، عقوبة أمي وجدي، وكل عائلتي من إخوة وأخوات، عسى أنْ لا تأتي عليّ، ولتذهب إلى مكان آخر"[16].

من كل ما سبق يمكن القول إنَّ الخطيئة بكل أنواعها التي تحيط بالإنسان، تستند على فكرة التوازن الإلهي للطبيعة، وسيادة نواميس الآلهة عليها، ومع أنَّ صور الخطايا تبدو وكأنَّ لا نهاية لها، إذ تبدأ من أصغر الأشياء حتى أكبر الخطايا وأوضحها، إلا أنَّ الصلاة والتضرُّع إلى الإله، كفيلة بالوقوف في وجه حصول الخطيئة، وقد يضطر الإنسان إلى التضرُّع والاعتراف بارتكاب الذنوب دون قصد، فيرجو من الإله المغفرة ووقف تنفيذ العقاب، وفي النص التالي يتضرَّع الإنسان للآلهة، و يعترف بذنوبه راجياً المغفرة والرحمة.

"أيتها الآلهة، انتهاكي لأوامرك كثير وخطاياي فظيعة
أيتها الآلهة، انتهاكي لأوامرك كثير وخطاياي فظيعة
أيها الإله المعلوم والمجهول، ذنوبي كثيرة وخطاياي فظيعة
الآثام التي ارتكبتها لا أعرفها
الخطايا التي ارتكبتها لا أعرفها
الشيء غير الظاهر الذي أكلته لا أعرفه
الشيء النجس الذي لمسته لا أعرفه"[17].

الخطيئة موجودة لا محالة في الجسد ومحيطة به، وعلى الإنسان لكي لا يقع فيها

أنْ يتجنَّب الوقوع بما يخرق نواميس الإله بالعمل أو بالصلاة. وسواء كان هذا الإنسان شخصاً عادياً، أو شخصية مهمة، فهو محاط بالخطيئة مرتكب لها، وعليه التضرُّع والصلاة لكسب رضا الآلهة وغفرانها في إحدى صلواته يخاطب الملك (آشوربانيبال)** الإله أدد متضـــــرِّعاً ومتوسِّلاً.

"أيها الإله أدد..أرفع إليك طلبي، وألهج بمدحك، لأنَّ البشر الذي يرافق خسوف القمر، وعداء قوى السماء والأرض وطلائع النحس موجودة في قصري، وفي بلدي، ولأنَّ الفتن الشديدة والمرض والنجس، وخرق قوانينك والظلم والخطيئة موجودة في جسدي، ولأنَّ شبحاً شريراً يلتصق بي"[18].

كانت الخطيئة في حضارة وادي الرافدين هي دينية بعامة، وأنَّ أكثر الخطايا التي يرتكبها الإنسان بقصد أو دون قصد، تقف وراءها القوى الشريرة (الشياطين) التي توسوس للإنسان ارتكابها[19].

ولكن لماذا تجر الخطيئة غضب الآلهة وعقابها دائماً؟ لماذا هذه الصفة (الغضب) بالذات تلتصق بالآلهة، وترتبط دائماً بالخطيئة والعقاب؟

لكي نجد الإجابة على هذه السؤال، لابد من البحث عن مفهـــوم العقـــاب الإلهـــي ومبرراته.

ثانياً: مفهوم العقاب الإلهي ومبرراته:

اعتقد الإنسان الرافدي القديم أنَّ كل ما يلحق به من سوء، أو ضيق، أو بلاء، إنَّما بسبب غضب إلهـــي، وهـــو مـــا دفعـــه لاسترضاء الآلهة بالصلاة والتضرُّع وتقديم القرابين، وعندما يستمر الغضـــب الإلهـــي دون أنْ يفلح الإنسان فـــي تهدئتـــه، فأنَّـــه سيلقي باللوم على نفسه لجهله، أو فشله في كسب رضا الآلهة، وعدم كفاية القـــرابين والهبات التي قدَّمها[20].

ويُعرّف العقاب بأنَّه القصاص الذي تأمر به الآلهة عن كل عمل مخالف لإرادتها السامية، ويمكن أنْ نقرنه بالعقاب الذي تنزله السلطة الأرضية عن كل عمل مخالف للقانون[21].

إنَّ أشكال انتهاك المقدسات الإلهية، سواء كانت (الخطيئة أو التابو، وممارسة السحر الأسود المحرَّم، تنتج الشر الذي يستفز الناموس الإلهي، والذي يواجه بشرٍ

مقابل من الآلهة ضد البشر، وإذا كان الإنسان يُخل بالنظام الإلهي من خلال الخطيئة التي تنتج شراً، فرد فعل الآلهة سيكون مماثلاً، إذ تقوم الآلهة بالإخلال بالنظام الإنساني من خلال شر "وفي هذا موازنة وتطبيق لسنة بابلية معروفة (العين بالعين) إذ يتلقَّى الخاطئ شراً معاكساً تأمر به الآلهة، وتنفذه الشياطين التي تحت إمرتها، ولا شك أنَّ تنافساً بين حجم الشر ونوعه وبين حجم الأذى المقابل للخاطئ ونوعه، ولذلك اختلفت أنواع العقوبات وأنواع الأمراض بشكل خاص"[22].

إنَّ كل خرق للقانون، أو للأعراف السومرية النافذة هو بحد ذاته جريمة بحق الآلهة، وبما أنَّ الحكَّام يتشدَّدون بعقابهم، كل من يتحدَّى سلطانهم وأوامرهم الآلهة، وتتمثَّل بعض تلك العقوبات بالعاهات والأمراض، والتي تعد من فعل الأبالسة، أو الشياطين، بل هي أوامر إلهية بحتة[23] لهذا كان سبب الإصابة بالمرض في اعتقاد السومريين هو الخطيئة أو ارتكاب الإثم والمعصية، سواء بقصد أو من غير قصد.

والجدير بالذكر أنَّ هناك فرق كبير بين الخطيئة القصدية وعقابها، والخطيئة غير المقصودة وعقابها[24].

ومن الصعب التمييز بين الخطيئة المقصودة المدركة، والخطيئة العارضة غير المقصودة، وأنَّ الخط الفاصل بين هاتين الخطيئتين ليس واضحاً في كثير من الحالات، ولذلك فالنتيجة التي تترتَّب على هاتين الخطيئتين ليست واضحة هي أيضاً، ولكن يمكن القول "إنَّ الخطيئة التي يقترفها الإنسان عن وعي، وضد آلهته أشد عقاباً من الخطيئة التي يرتكبها الإنسان من غير قصد، وهذه الاعتبارات تفسِّر أنَّ انتهاك المقدس عن إدراك وإرادة لا يمكن غفرانه، ويؤدي إلى إقصاء الخاطئ نفسه، أمَّا الانتهاك غير الواعي، أو عن سهو، ولما هو مقدَّس فهو قابل للغفران، ومثل هذا الأمر ينطبق على الآلهة أيضاً" [25].

أ-عقوبات الخطيئة القصدية:

في مجال الخطيئة القصدية، نجد شواهد كثيرة في الأدب العراقي القديم، وتعد أسطورة نزول (انانا/عشتار) إلى العالم الأسفل*** خير الشواهد على هذا النوع من الخطيئة والعقاب، حيث تقرر انانا/عشتار

النزول إلى العالم الأسفل في نزوة من الاعتداد والغرور، بالرغم من علمها بقوانين ذلك العالم، والنتائج المترتبة على الرحلة مسبقاً، ومن الواضح أنَّ تحديدها لثلاثة من الآلهة ليقصدهم وزيرها في حال أنْ طال غيابها، هو دليل على أنَّها كانت تعلم أنَّ ما فعلته كان أمراً محرَّماً وغير مشروع، لذلك كان السجن في العالم الأسفل، والصراع لأجل الخروج ثانية، هو العقاب لخطيئتها المقصودة[26].

وإذا ما انتقلنا من عقوبات خطايا الآلهة القصدية، إلى عقوبات خطايا البشر المقصودة، نقرأ في اللوح الثاني عشر من (ملحمة جلجامش)**** تفاصيل سقوط أداتي (البكو) و (المكو) أي الطبل ومدق الطبل الخاصة بجلجامش إلى العالم الأسفل ونزول (انكيدو) صديقه لجلبهما، حيث يقدِّم جلجامش جملة من التوصيات لصديقه؛ كي يستطيع العودة سالماً من ذلك العالم، ويحذِّره من خطورة مخالفة تلك التوصيات[27].

لم يلتزم (انكيدو) بتوصيات صديقه، فقررت آلهة العالم الأسفل أنْ لا يخرج من هذا العالم، لأنَّ من سنن العالم الأسفل أنَّ من يدخله لا يرجح منه، وبهذا يكون انكيدو قد انتهك بقصد المحرَّمات، فجاء عقابه فوراً[28].

يفهم مما سبق أنَّ الخطيئة حينما ترتكب عن وعي وقصد، لا يكفر عنها بالتضحية أو الاستغفار، بل أنَّها تستوجب إنزال أقسى العقوبات بالمذنب، والتي قد تصل إلى حد الحكم بموته.

ب-عقوبات الخطيئة غير المقصودة:

إنَّ النتائج المترتبة على الخطيئة غير المقصودة، تختلف تماماً عن سابقتها، فإذا كانت الخطيئة المقصودة لا تغتفر وتستوجب الموت، فالخطيئة غير المقصودة على الضد من هذا تماماً، فهي خطيئة قابلة للغفران، ولا تتجاوز عقوبتها المرض أو الحزن أو الفقر، وفيما يتعلَّق بالمرض، تجدر الإشارة إلى أنَّ النصوص الطبية كانت تنظر إلى الأمراض باعتبارها عقاباً إلهياً نتيجة الذنوب التي ارتكبها المريض، لذلك فليس هناك دواء لا يتضمَّن استخدام الصلاة والطقوس الدينية[29].

من الأمثلة على هذا النوع من العقاب، ما حصل لجلجامش عندما ارتكب خطيئة غير مقصودة، بأنْ جاء في ملحمة

جلجامش، أنَّه في أحد الاحتفالات، كان جلجامش ومن شاركه مجتمعين لإجراء طقوس سحرية، يتممها جلجامش بـــ(البكو) و (المكو) وطقوس هذه الشعائر تقتضي أنْ لا تحدث أي ضوضاء، وأنْ يلتزم الجميع بالصمت المطلق، ولم يفتح أحد فمه باستثناء العذراء الصغيرة التي أطلقت صرخة بغير قصد، فتسببت بسقوط الآلتين في العالم الأسفل[30].

لم يرتكب جلجامش غلطة مقصودة أثناء الاحتفال الطقسي، بل أنَّ إحدى مساعداته هي من اقترفت الخطيئة، فلو أنَّ جلجامش هو من ارتكب الخطيئة عن قصد، لكان عقابه الموت، كما مات صديقه انكيدو والذي خالف عن قصد إرادة المحظورات الجهنمية[31].

من كل ما سبق يمكننا الإجابة على السؤال الذي طرحناه في بداية الحديث عن العقاب الإلهي، والمتعلق بتبرير العراقي القديم لكل ما يلحق به من مصائب وعقوبات بإرجاعها إلى الغضب الإلهي، إذ يمكن القول بأنَّ صفة الغضب من بين الصفات المهمة التي ألصقتها العقلية العراقية القديمة لآلهتها، وذلك للتماس المباشر بين هذه الصفة و الإنسان، فغضب الآلهة هو محاولة ابتدعها الذهن الإنساني ليفسِّر ما يصيبه من كوارث طبيعية وبشرية، جماعية أو فردية[32]، أضف إلى ذلك ما تتصف به البيئة الطبيعية لبلاد الرافدين من عنف وشدَّة، تبعاً لتبدل المواسم والتفاوت الشديد في درجات الحرارة صيفاً وشتاءً، ونهاراً وليلاً، فضلاً عن الزوابع الرعدية والرياح الرملية، والفيضانات السنوية لنهري دجلة والفرات، وما عُرف به هذا الفيضان من عنف، وعدم الملاءمة لمواسم الزراعة[33]، ويضاف إلى ذلك العامل البشري المتمثِّل بالهجرات الكثيرة، والغزوات العنيفة التي تعرَّضت لها البلاد على مر أدوارها التاريخية[34].

هذه الكوارث الطبيعية والبشرية، أثقلت حياة الفرد في بلاد الرافدين بشحنات من القلق والخوف والذعر، وتوقُّع المفاجآت؛ لتنعكس تلك التطلُّعات القلقة بشكل واضح في العديد من النصوص المسمارية القديمة، التي يتكرَّر في مضمونها العقوبات واللعنات التي تعرَّضت لها البشرية، بل

وتعرَّضت لها الآلهة نفسها من قبل آلهة أخرى وللأسباب نفسها.

والسؤال المطروح هنا عن مدى التوافق بين الخطيئة أي كان نوعها– وبين العقاب الإلهي– حتى وإنْ كان مبرَّراً، وهو ما سنحاول الإجابة عنه في حديثنا التالي.

ثالثاً: العقاب الإلهي وتخطِّي مبدأ العدالة:

على الرغم من أنَّ النذور والقرابين، والالتزام بالتعاليم والطقوس الدينية كانت واجبة على كل فرد، إلا أنَّها لم تكن كافية لنيل عطف وبركات الآلهة، ولذلك فالمعادلة القائلة بأنَّ (طاعة الآلهة = حياة سعيدة) لم تكن القاعدة، كما لم تكن شائعة عملياً، ففي حالات كثيرة تمت معاقبة أتقياء على نحو غير مفهوم[35]، والسؤال المطروح هنا: هل يتخطَّى العقاب الإلهي مبدأ العدل الاجتماعي؛ ليصبح إجراءً عنيفاً وظالماً؟ أم أنَّ هناك توافقاً – إلى حد ما – بين الخطيئة والعقاب الإلهي؟ وهل يمكن القول بوجود توافق بين الخطيئة والعقاب؟

نجد إجابة هذا السؤال في كثير من النصوص التي تشكِّك في القيم الاجتماعية، والمعتقدات الدينية، والتي دفعت أصحابها إلى التساؤل عن مدى عدالة الآلهة وهي تنزل بالبشر أقسى أنواع العقوبات، والتي قد يصل بعضها إلى حد التدبير الشامل للمدن ومن عدَّة نصوص، سنقف عند نصين فقط لأهميتهما، ولأنَّهما أسبق النصوص في الحديث بشكل واضح عن موضوع العدل الإلهي.

أ- النص الأول (نص العادل المعذب)[*****]:

كان الشخص العادل شخصاً مستقيماً مسالماً متديناً، يصف نفسه بقوله:

"كان الطلب حكمة لي، والقربان شريعتي
اليوم الذي فيه يكرمون الإله كان بهجتي.
ويوم التطواف بالآلهة كان لي ربحاً وفائدة"[36].

هذه الصفات الحسنة والأخلاق الدمثة، لم تمنع عنه المصائب والعقوبات ومع "إنَّ العادل المعذب كان غنياً وحكيماً وعادلاً، وكان ينعم ببركة صفاء العيش مع الأصدقاء وذوي القربى، إلاّ أنَّه أصيب في أحد الأيام، وبلا سبب واضح بالسقم والعذاب وخيانة الأصدقاء، وكره الناس له"[37].

تكاثرت المصائب والعقوبات على العادل المعذب، فمنها ما نال من صحته:

"وهبت عليّ ريح رديئة
لقد انتشرت حمى –ايغو–من سطح العالم السفلي
وخرج السعال الرديء من ابسو فجاءة
ومع النصر الفائض جاءت الرجفة الباردة
... ...
ضربت رأسي وآلمت جمجمتي
فأظلم وجهي وزاغت عيناي
واجتازت هذه الآلام على رقبتي وشلت عنقي
أصابت صدري، وضربت أحشائي"[38].

ومنها من أتى على مركزه الوظيفي، ومكانته الاجتماعية

"أنا المتبختر مثل سيد تعلمت أنْ أسير في الظلام
وبعد أنْ كنت متبختراً أصبحت عبداً
وعوض أسرتي الواسعة أصبحت وحيداً
حينما أمشي في الشارع تشير الأصابع إليّ
وإذا دخلت البلاد تغامزوا عليّ
مدينتي تنظر إليّ بقساوة مثل عدو
لقد انقلب أخي إلى غريب
ورفيقي إلى شرير وشيطان
وزميلي يصقل أسلحته ضدي
علناً في المحكمة لعنني عبدي" [39].

لم يستطع المعذب العادل أنْ يستوعب هذا العقاب الإلهي الجائر وغير المبرَّر، فتنطلق شكوكه حول عدل هذا الإله الذي عاقبه وتخلَّى عنه دونما سبب:

"علاماتي أفزعت المعزم
وفؤولي الرديئة اقلقت العرف
إنَّ المتعوذ لم يحل طبيعة دائي
ولا العراف حدَّد نهاية لألمي
لم يأتِ الإله إلى عوني، ولم يأخذ بيدي
آلهتي لم تشفق عليّ، ولم تسر بقربي" [40].

سيطر اليأس والبؤس على المعذب، فاختتم النص بحيرةٍ وشك في أمر الآلهة الجائرة.

من هنا ثار سؤال وجيه: كيف يمكن أنْ يحدث هذا، والآلهة الحكيمة تسيّر العالم؟ وكيف يمكن أنْ يسود الشر على الخير في حياة بعض الأتقياء، وكان جواب الكهنة أنَّ الآلهة نفسها لم تخلُ من صفات شريرة عندما تَبِعت طريق العنف والبطش خلال المراحل الأولى من خلق الكون، وفي مناسبات أخرى فيما بعد، ورغم أنَّهم لم ينسبوا إلى تلك الآلهة القداسة المطلقة، إلا

أنَّ هذا لم يمنعهم من اعتبارها حرساً للعدل والعدالة[41]، وهي النتيجة التي يقضي إليها النقاش بين المتحاورين في النص التالي.

ب- النص الثاني (النص الحواري)[******]

يدور النص الحواري بين شخصين الأول ورع متعبِّد، تدفعه المصائب والعقوبات إلى التشكيك والسخرية من صنيع الآلهة، وبين شخص مؤمن يحاول أنْ يعود بصديقه إلى طريق الإيمان، ويبدِّد شكوكه بأدلة عن العدل الإلهي.

يقول الورع المتعبِّد:

"لم يمنحني الإله غير العوز عوضاً عن الغنى
فالأكسح يفوقني والمجنون يسير أمامي
النذل يبلغ القمة، وأنا ينتقص من قدري"[42].

ولأنَّ الآلهة لم تمنح هذا الورع المتعبِّد ما كان يطمح إليه، فـــأنَّه يندفع إلى التشكيك في عدالتها، بل وفي جدوى الآلهة نفسها، فيما يخاطب صديقه مضيفاً على كلامه السابق قوله: "إلا أنَّ كلمة واحدة فقط أريد إضافتها أمامك أنَّه لطريق سعادة هو الذي يتبعه من لا يبحثون عن الإله، بينما يتحوَّل إلى الفقر المتدينون المتحمسون للآلهة، ويفقدون ممتلكاتهم"[43].

يرد الشخص المؤمن على صديقه، محاولاً بث الطمأنينة والارتياح في نفسه، وإقناعه بأنَّ ما حلّ به، لا يمكن إدراك كنهه أو الحكمة منه، لأنَّ ذلك لا يظهر إلا بعد أمد بعيد، وعلمه متروك للآلهة فقط:

"مقاصد الإله هي بعيدة عنا
كما هي بعيدة أعماق السموات
لا يسعنا أنْ نسمع ما يخرج من فم الآلهة
ويبقى البشر عاجزين عن فهمها تماماً
أفكار الآلهة تبقى متعذرة عن البشر
ومن المحال على البشر التعريف بطرق الآلهة[44].

لم تفلح تلك النصائح في إقناع المتعبد، بل زادته إصراراً على ترك الإيمان بالآلهة، وازدراء شعائرها:

"أريد هجر بيتي
أنا لا أريد احتياج أي شيء بعد
أريد نسيان مراسم الآلهة وأدوس طقوسها بقدمي"[45].

يستمر النص الحواري، لينتهي إلى نظرية العقاب المقدَّس على الممارسات البشرية، والذي يجب أنْ يُقبل كما هو، إذ

تظل مقاصده بعيدة عن الإدراك البشري، ويكون الاتفاق أخيراً بين المتحاورين على الاقتناع بأنَّ البشر غير عادلين، وأنَّهم كذلك لأنَّ الآلهة خلقتهم كذلك.

إنَّ نظرية العقاب المقدس، وفكرة المقاصد الإلهية الخفية هي التي جعلت من الورع المتعبد، يتراجع عن قراره، ويعود ليلتمس عون وشفقة الآلهة[46]:

"أنت شفوق يا صديقي: فاعتبر إذن قلقي
تعال لمساعدتي، أنظر إلى ألمي وأعلم
بأنَّني كنت ساهراً ومحترماً وراجياً
ولم أجد قط، ولو للحظة واحدة العون أو المساعدة
مشيت دون ضجيج في ساحات مدينتي
وصوتي كان دون دوي وكلمتي منخفضة
لم أكن متبجِّحاً وكنت مثل عبد بين جميع زملائي.
ألا فليمنحني الآلهة الذين أهملوني من جديد عونهم
والآلهة التي هجرتني لتعد من جديد
إلى معاملتي بشفقة"[47].

ورغم أنَّ الإجابة النهائية للكهنة والمؤمنين كانت التمسك بالتقوى باعتبارها طريق الصحة والسعادة، وأنَّ الخير سينتصر في النهاية على الشر، وأنَّ على المتعبد المبتلى في حياته أنْ يصبر ولا ييأس من رحمة الآلهة وعطفها، يبقى الشك والحيرة واليأس حاضراً في كثيراً من النصوص الرافدية القديمة.

وهنا تجدر الإشارة إلى الظروف التي أحاطت بكتابة تلك النصوص، والتي ألقت بظلالها على صاحب النص، ودفعته إلى التشكيك بعدالة الآلهة، فالنص الأول كتب في عهد الدولة الكشية (1595- 1162) ق.م وهي فترة التسلط الأجنبي على بلاد الرافدين[48]، بينما كتب النص الثاني في فترة حكم الملك نبوخذ نصر الأول (1124- 1103ق.م) وهي الفترة التي شهدت التهديدات العيلامية من جهة، والآشورية من جهة أخرى[49]، وما رافق ذلك من اضطرابات اقتصادية وسياسية واجتماعية.

الخاتمة:

من كل ما سبق يمكن التأكيد على النقاط التالية:

1- تقوم فلسفة الخطيئة والعقاب في الفكر الرافدي القديم على مبدأ العين بالعين،

إذ يتلقَّى الخاطئ شراً معاكساً تأمر به الآلهة مقابل خطيئته.

2- إنَّ المعنى الفلسفي الذي يقوم وراء اعتقاد الرافدي القديم بأنَّ الخطيئة قديمة قدم الإنسان، هو استحالة تجنُّب الخطايا، نظراً لكثرة المحرَّمات والممنوعات الدينية والأخلاقية.

3- تتصف الآلهة – بحسب الفكر الرافدي القديم- بكثير من صفات البشر، لذلك كان الغضب والعنف والشر صفة من الصفات الملازمة لها.

4- تأثير الظروف الطبيعية القاسية، والاضطرابات السياسية على الإنسان الرافدي القديم، كل ذلك دفعه إلى التشاؤم واليأس من تحقيق العدالة الإلهية.

هوامش البحث ومراجعه:

(1) قاسم الشواف: ديوان الأساطير: الآلهة والبشر، تقديم ادونيس، (بيروت: دار الساقي،1997)، ص308.

(2) جفري بارندري: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، تر: أمام عبد الفتاح، مراجعة: عبد الغفار مكاوي، سلسلة عالم المعرفة، العدد (173)، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، 1993)، ص23.

(3) جورج بوييه شمار: المسئولية الجزائية في الآداب الأشورية والبابلية، ترجمة: سليم الصويصي، (بغداد: دار الرشيد للنشر، 19992)، ص45.

(4) خزعلي الماجدي: بخور الآلهة، ط1 (عمان: الأصلية للنشر والتوزيع، 198)، ص344.

(5) صموئيل نوح كريمر: الديانة السومرية اللاهوت والطقس والأسطورة موسوعة تاريخ الأديان، ترجمة نهاد خياطة، تحرير: فراس السواح (دمشق: دار علاء الدين، 2004)، ص202.

(6) جورج بوييه شمار: المسئولية الجزائية، مرجع سبق ذكره، ص124، 155.

(7) حكمت بشير الأسود: فعل المحرم الذي يؤدي إلى اللعنة في حضارة بلاد الرافدين، مقال منشور على موقع الأثاري العراقي:www.irqinhistory.com

(8) جورج بوييهشمار:المسئولية الجزائية، مرجع سبق ذكره، ص134.

(9) خزعل الماجدي: بخور الآلهة، مرجع سبق ذكره، ص346.

(10) ادوارد كيرا: كتبوا على الطين، ترجمة: محمود حسين الأمين، مراجعة علي خليل (بغداد: مكتبة الجوادين، 1962) ص158.

(11) المرجع نفسه، ص151.

(12) قاسم الشواف: ديوان الأساطير، مرجع سبق ذكره، ص357.

*كينغو هو ابن الآلهة تيامت، سلمت له القيادة في حربها مع من قتل زوجها من الآلهة الصغار، وعندما خسر المعركة، وقع عليه الاختيار للتضحية به من أجل خلق البشر، وهو ما ورد في أسطورة الخلق، التي جاءت بعدَّة نسخ منها البابلية، التي تعرف أسطورة التكوين البابلية (الانيومااليليش)، ويعود تاريخ كتابتها إلى مطلع القرن الثاني قبل الميلاد، أنظر: فارس السواح: مغامرة العقل الأولى، ط2، دمشق: دار علاء الدين، 2002).

(13) المرجع نفسه، ص357.

(14) طه باقر: مقدمة في أدب العراق القديم، (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1976) ص150.

(15) سامي سعيد الأحمد: الأصول الأولى لأفكار الشر والشيطان (بغداد، مطبعة الجامعة) 1970، ص15.

(16) نائل حنون: عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد الرافدين، ط2، (بغداد: دار الشئون الثقافية، 1986)، ص145.

(17) جورج بوييه شمار: المسئولية الجزائية، مرجع سبق ذكره، ص50.

**الملك آشوربانيبال (686 –628ق.م)، هو ملك آشوري، لقب بملك العالم كان آخر ملوك الإمبراطورية الآشورية الحديثة، اشتهر بكونه راعياً سخياً للآداب والفنون، وأنشأ مكتبة عظيمة احتفظت لنا بالكثير من أدب وفكر وادي الرافدين، ولعل أهم ما احتوته هذه المكتبة الدرَّة الرائعة: ملحمة جلجامش، ينظر: جبرا إبراهيم جبرا: الفن والحلم والفعل (بيروت:

الموسوعة العربية للدراسات والنشر، 1988).

(18) جورج بوييه شمار: المسئولية الجزائية، مرجع سبق ذكره، ص155.

(19) المرجع نفسه، ص84.

(20) يوسف الحوراني: البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسط الأسيوي القديم (بيروت: دار النهار، 1978)، ص341.

(21) جان بوتيرو: بلاد الرافدين (الكتابة، العقل، الآلهة) ترجمة الأب ألبير أبونا، مراجعة: وليد خياط، ط1 (بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، 1990، ص279)

(22) خزعل الماجدي: بخور الآلهة، مرجع سبق ذكره، ص350.

(23) عضيد جواد الخميس: الطب والرعاية الصحية في بلاد الرافدين قديماً من موقع الحوار المتمدن، العدد5700- 2017/11/16 www.alhewar.org

(24) ولاء مهدي محمد: الجوانب الفلسفية في فكر وادي الرافدين، وأثره في العهد القديم، رسالة ماجستير (جامعة بغداد: كلية الآداب، 1999)، ص118.

(25) جورج بوييه شمار: المسئولية الجزائية، مرجع سبق ذكره، ط15.

***لهذه الأسطورة نسختان: الأولى، وهي المدونة باللغة السومرية ويعود زمن كتابتها إلى النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، أما النسخة الثانية فمدونة باللغة الآشورية، وتعود إلى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، وداد جاسم الحوراني الرحلة إلى الفردوس والجحيم في أساطير العراق القديم، (بغداد، ب.د، 1988)، ص135.

(26) د.فاضل سوداني: هبوط سيدة الأنوثة إلى العالم السفلي مقال منشور على الموقع الإلكتروني: www.mesopot.com

**** تعد الملحمة من أقدم الأعمال الأدبية في العالم، كتبت الملحمة على ألواح الطين بالخط المسماري، ويوجد أكثر من نسخة منها، أقدمها

يعود إلى الحقبة السومرية، ولكن أكثرها اكتمالاً يعود للحقبة البابلية، كتبت هذه الملحمة منذ حوالي 2500/2800 ق.م وتتحدث الملحمة عن ملك مدينة أوروك السومرية جلجامش الباحث عن الخلود.

(27) سامي سعيد الأحمد: كلكامش، ط1 (بغداد: دار الشئون الثقافية، 1990)، ص91.

(28) جورج بوييه شمار: المسئولية الجزائية، مرجع سبق ذكره، ص161.

(29) المرجع نفسه، ص153- 154.

(30) صموئيل نوح كريمر: الأساطير السومرية، ترجمة: يوسف داود عبد القادر (بغداد: مطبعة المعارف، 1971) ص59.

(31) جورج بوييه شمار: المسئولية الجزائية، مرجع سبق ذكره، ص177، 178.

(32) ولاء مهدي: الجوانب الفلسفية في فكر وادي الرافدين، مرجع سبق ذكره، ص21.

(33) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج1، ط1 (لندن: دار الورّاق للنشر، 2009)، ص47-48.

(34) المرجع نفسه، ص48.

(35) عبد الوهاب حميد رشيد: حضارة وادي الرافدين، منشور على موقع الحوار المتمدن، 2012م. www.alhewar.org.

*****هذا النص لقصيدة تعود إلى العهد البابلي، وبطلها (شبسي، مشري، نرجال) أمَّا زمن تأليفها فيرجع إلى العصر الكشي (1595 – 1162) ق.م وتتألف من حوالي 500 بيت مدونة على أربعة ألواح، لمزيد من التفاصيل انظر قاسم الشواف: ديوان الأساطير، مرجع سبق ذكره، ص450.

(36) رينيهلابات: المعتقدات الدينية في بلاد الرافدين (بغداد: مطبعة التعليم العالي، 1982)، ص398.

(37) سامي سعيد الأحمد: المعتقدات الدينية، مرجع سبق ذكره، ص34.

(38) رينيةلابات: المعتقدات الدينية في بلاد الرافدين، مرجع سبق ذكره، ص400.

(39) المرجع نفسه، ص396.

(40) المرجع نفسه، ص402.

(41) هاري ساكز، مرجع سبق ذكره، ص230.

****** هذا النص هو من الأدب الحواري الذي يكون بين شخصين، وقد حمل كثير من المعالم الفلسفية والدينية، يرجع النص لشخص يدعى (ساجيل- كينا موبيب) الذي عاش إبان حكم الملك (نبوخذ نصر الأول 1124- 1103) ق.م، وقد ضم النص سبعاً وعشرين قطعة، تحوي كل قطعة أحد عشر سطراً، ينظر: قاسم الشواف، ديوان الأساطير، مرجع سبق ذكره، ص450.

(42) قاسم الشواف: ديوان الأساطير، مرجع سبق ذكره، ص456.

(43) المرجع نفسه، ص456.

(44) المرجع نفسه، ص456.

(45) المرجع نفسه، ص457.

(46) هاري ساكز: عظمة بابل: ترجمة عامر سليمان (جامعة الموصل: دار الكتب، 1979)، ص494.

(47) قاسم الشواف، مرجع سبق ذكره، ص462.

(48) هاري ساكز: عظمة بابل، مرجع سبق ذكره، ص93.

(49) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، مرجع سبق ذكره، ص461-462.